مجلة جامعة الملك سعود، م 25، الآداب (2) ، ص ص 241-250، الرياض (2013م/ 1434هـ)

في البينيّة، نشأتها ودلالتها

كاظم جهاد حسن

أستاذ ومترجم، بالمعهد الوطنيّ للّغات والحضارات الشرقيّة، باريس، فرنسا

الكلمات المفتاحية: العلوم الإنسانية، الدراسات البينية، المنهج، المعرفة.

ملخص المداخلة: التعيين للحدود وتخصيص الأدوات أسهم بصورة جذرية في الانتقال من الكلاسيكية إلى الحداثة. فالكلاسيكية تتميز بأن الجميع يفكرون فيها بكل الأشياء، وهي الطريقة نفسها التي ترد في وصف ابن خلدون لتعريف العرب للأدب، بـ"الأخذ من كل علم بطرف". وهذه الورقة تقف عند مفاهيم البينية، ومحدِّداتها المعرفية والعلمية، وتحفر في نشأتها التاريخية، لتكشف عن أوجه الوضوح حيناً والالتباس أحياناً أخرى في دلالتها، وتخلص إلى أن البينية في طبع الفكر الإنساني في نماذج دالة منذ أرسطو إلى إدورد سعيد.

تُعرَّف "البينيّة" باعتبارها عمليّة تقوم على الجمع بين كفاءات أو أفكار آتية من ميادين علميّة أو فكريّة مختلفة لتحقيق هدفٍ مشترك، وذلك بالتّوسّل بمقارباتٍ مختلفة لمواجهة مسألة بذاتها أو مشكل بذاته. ولقد شاع مصطلح "البينيّة" في بعض الأقطار العربيّة في السّنوات الأخيرة كمقابل للمصطلح الإنجليزيّ Interdisciplinarity ورديفه الفرنسيّ Interdisciplinarité أو Interdiscipline. ولا يمكن فهم هذا المصطلح إلاّ بالمقارنة مع مصطلحاتٍ أخرى مجاورة له وتكاد تكون لصيقةً به. فإذا رددنا مصطلح "البينيّة" إلى صيغته الأصليّة الكاملة المذكورة أعلاه وترجمناه إلى "البيْن –ميدانيّة"، وجدنا إلى جانبه كلاً من "العبْر– ميدانيّة" Transdisciplinarité و"تعدّدية الميادين" Pluridisciplinarité. وقد برز في الآونة الأخيرة مفهوم آخر، سلبيّ الشّحنة إلى حدٍّ ما، انبثق من داخل البينيّة، ويشكّل ما يشبه ردّة فعل عليها، ذلكم هو مصطلح "اللّا–ميدانيّة" Indiscipline، بمعنى نقض فكرة

"الميدانيّة" والخروج عليها، بشاكلة سنوضّحها في ما يأتي:

البينيّة وأخواتها :

لمقاربة هذه المفاهيم ينبغي أن نبدأ بتعريف المفهوم الأساسيّ الذي تقوم كلّها عليه، أي مفهوم الميدان أو المضمار أو المبحث العلميّ أو الفكريّ discipline مأخوذاً بحدّ ذاته، خارج العلاقة بالميادين الأخرى. ويعرّف عالم الاجتماع إدغار موران Edgar Morin "الميدان" بكونه "فئة تنظيميّة تقوم في صميم المعرفة العلميّة وتمارس في داخلها تقسيم العمل وتخصيصه. وهي تستجيب إلى تعدّد الميادين المشتملة على العلوم. إنّ كلّ ميدان، بالرّغم من اندماجه في مجموعٍ علميّ أوسع، إنّما ينزع بصورة طبيعيّة إلى الاستقلال، يحقّقه بتعيين حدوده الخاصّة واللّغة التي يجترحها لنفسه والتّقنيّات التي عليه أن يهيّئها أو يستخدمها، وكذلك، وعلى وجه الاحتمال، بنظريّاتٍ خاصّة به" (Edgar Morin، 1994).

ويشير هذا العالِم إلى كون هذا التّعيين للحدود وهذا التّخصيص للأدوات ساهما بصورة أساسيّة في الانتقال من الكلاسيكيّة إلى الحداثة. فالكلاسيكيّة، بما هي واحدة من حقب التّاريخ الفكريّ والعلميّ، تتميّز بكون "الجميع يفكّرون فيها بكلّ الأشياء"، وهو ما يبدو قريباً من التّعريف الشّهير الذي لخّص فيه ابن خلدون تعريف العرب للأدب بكونه "حفْظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كلّ علم بطرف".

هكذا نشأت فكرة التّخصّص، وصار كلّ عالِم أو مفكّر ملزماً بحصر تفكيره في دقائق ميدانه الخاصّ. بيد أنّ شيوع التّخصّص هذا كإلزامٍ علميّ وثقافيّ سرعان ما قاد إلى قيام عوازل فاصلة بين العلوم والمعارف، بدأ ضررها يتجلّى بسرعة من خلال ما ينبثق داخل الميادين المختلفة من مشاكل لا يمكن حلّها، وأسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلاّ بالاستعانة بأدوات ميادين أخرى. هنا أيضاً تأتينا كتابات إدغار موران بإضاءات باهرة لهذا السّياق الإشكاليّ. كتب: "إنّ الحدود الخاصّة بكلّ ميدان، ولغته ومفهوماته، سرعان ما تعمل على عزله عن الميادين الأخرى وعن المشكليّات التي تخترق مختلف الميادين. وإنّ فكراً شديد التّخصّص سرعان ما يتحوّل إلى بضاعةِ ملاّكٍ يمنع أدنى تسلّلٍ غريبٍ إلى رقعة المعرفة الخاصّة به. معروفٌ أنّ المفردة discipline، التي تسمّي في لغتنا ميدان البحث، كانت بالأصل تسمّي سوطاً صغيراً يُستعمل في جلد الذّات، ويمكّن بالتّالي من ممارسة النّقد الذّاتيّ. وبالتوسّع في الاستعمال، تنقلب المفردة إلى أداةٍ لجلد كلِّ من يغامر بالاندساس في ميدانٍ فكريّ

يعده المتخصّص فيه حظيرته المحجوزة. (...) يمكن مع ذلك أن نقول بسرعة إنّ تاريخ العلوم ليس فحسب تاريخ نشوء الميادين وتكاثرها، بل هو أيضاً، وفي الأوان ذاته، تاريخ تجاوز الحدود الفاصلة بين الميادين، وتاريخ انتشار عددٍ من المشكليّات من ميدانٍ إلى آخر. إنّه تاريخ انتقال المفاهيم وقيام ميادين مختلطة تنزع إلى الاستقلال هي أيضاً. إنّه أخيراً تاريخ نشأة عُقَدٍ تنخرط فيها وتتلاحم وتندمج ميادين متعدّدة" (Edgar Morin، 1994).

ويكتسب كلام المفكّر هذا وضوحاً أكبر عندما نتذكّر أنّ المفردة discipline، التي تعني "ميدان"، تدلّ في اللّغات المتفرّعة من اللاّتينيّة وكذلك في الإنجليزية على "الانضباط"، وبذا تكون فكرة الانضباط ومراعاة قواعد العمل ومعاييره حاضرة في فكرة التخصّص و"الميدانيّة" أصلاً.

هكذا عمل العلماء والمفكّرون بتعدّد الميادين وبِعَبْر – الميدانيّة والبين – ميدانيّة أو البينّية، وكان لكلٍّ من هذه الممارسات شروطها الخاصّة وفوائدها وعلاّتها.

تُعرَّف الممارسة "المتعدّدة الميادين" بكونها محلّ التقاء باحثين آتين من ميادين مختلفة حول موضوعٍ مشترك يحتفظ كلّ منهم لدى معالجته بخصوصيّة مفاهيمه ومناهجه وتخصّصه. وتُعرَّف "العبْر-ميدانيّة" بأنّها نشاط معرفيّ يخترق مختلف العلوم دون أن يكون مهموماً بمراعاة ما يفصل بينها من حدود. أمّا "البيْن-ميدانيّة" أو "البينيّة" فتفترض الحوار وتبادل المعلومات والمعارف والاجراءات التّحليليّة والمناهج بين متخصّصين آتين من ميادين عديدة لمعالجة مشكليّة واحدة أو موضوعٍ واحد. فهي تستدعي إذن التّفاعل والإثراء المتبادل. ولذا نالت البينيّة حظوةً أكبر ممّا نالته الممارستان السّابقتان. فبتنا نرى العديد من الظّواهر والمسائل الإنسانيّة الخطيرة وهي تتلقّى على نحوٍ متزامن ومتضافر نظرات الأطبّاء وعلماء النّفس والفلاسفة ورجال القانون وسواهم. كما نرى ظواهر أدبيّة وفنيّة وهي تجتذب تحليلات النّقّاد وعلماء النّفس وعلماء الاجتماع والفلاسفة.

ولئن كان للبينيّة فوائدها الجليلة الآتية من كونها تهدف إلى القبض على هذا الموضوع أو ذاك في نوعٍ من الإحاطة أو الشّمول، فهي تتضمّن في الأوان ذاته مخاطر يحدّدها إدغار موران في كون مقاربة كهذه، خصوصاً عندما يضطلع بها فردٌ بذاته أو فريق من الباحثين صغير، تتمخّض عن تصوّراتٍ تقريبيّة وعن شيءٍ من الخلط بين المفاهيم، وعن توهّم الإحاطة بجميع المعارف والبراعة في استخدام أكبر قدر ممكن

من المصطلحات. ولذا يدعو هذا المفكّر إلى الموازنة بين الميادين المنخرطة في مقاربة بينيّة؛ موازنة تتمثّل في تقريب الميادين بعضها من بعض وفي الحفاظ في الأوان ذاته، على خصوصيّة كلّ ميدان.

حدود البينيّة

للبينيّة اليوم في الغرب اختصاصيّوها ومؤرّخوها ونقّادها، لا بل حتّى خصومها ومناوئوها. وهناك منابر فكريّة يكرّس العاملون فيها جهودهم للبحث في مشاكل العلوم وتبادلاتها المفهوميّة، أي للبينيّة في تطوّراتها النّظريّة وتجليّاتها العلميّة.

ومن هذه المنابر مجلّة "لابيرانت" *Labyrinthe* ("متاهة") الفرنسيّة، التي كرّست عددها السّابع والعشرين الصّادر في 2007 للبحث في مآزق البينيّة، وفي ما يدفع بعض المفكّرين للتّفكير بضرورة تجاوزها.

وفي دراسة مشتركة حملها العدد المذكور، يستحضر رينو باسكييه Renaud Pasquier ودافيد شريبر David Schreiber تاريخ البينيّة، في فرنسا بخاصّة، ويعرّجان في الختام على تجلّيّات خصمها الطّالع من ثناياها الذي يتمثّل في اللّا–ميدانيّة (Renaud Pasquier et David Schreiber، 2007: 91–108).

يُرجع الباحثان الأصول البعيدة لفكرة البينيّة إلى عصر النّهضة الأوروبيّ الذي شهد سجالاً حادّاً حول طبيعة المعرفة: هل هي السّعي إلى التخصّص في ميدان معيّن أم إلى احتياز معرفة إنسانيّة شاملة؟ إنّ الخوف من هاجس المعرفة الحصريّة أو الواحدة، الذي أعرب عنه توما الأكويني، هو الذي يقيم أيضاً وراء الهجومات التي تلقّتها جامعة السّوربون الفرنسيّة في بدايات القرن العشرين، وخصوصاً خلال انتفاضة الطّلبة في 1968. هجومات تتصدّى لمبدأ تقسيم العمل الفكريّ، أي تخصيصه، الذي كان نادى به عالِم الاجتماع إميل دوركهايم Emile Durkheim، وتدعو، أي الهجومات، إلى تشجيع انتقال المعارف وخروجها عن حدود الميادين. هذا كلّه قاد إلى إصلاح الجامعة الفرنسيّة الذي بدأ في 1968 وصار واقعاً قائماً في ثمانينيّات القرن العشرين وتسعينيّاته. من هنا فإنّ مفردة البينيّة تظلّ حديثة العهد، فهي لم تدخل كصفة ("بين–ميدانيّ" أو "بينيّ" interdisciplinaire) في "معجم روبير الصّغير" *le Petit Robert* للّغة الفرنسيّة إلاّ في 1959، وعلى هيئة اسمٍ ("بين–ميدانيّة" أو "بينيّة" interdisciplinarité) إلاّ في 1968.

في ما وراء الشّعار الإنسانويّ المتمثّل في المطالبة بالخروج من عالَم الانسان ذي الفكر الواحد أو الجهاز المفهوميّ الواحد، يشير الباحثان إلى أنّ انبثاق البينيّة

يستجيب خصوصاً إلى حاجة علميّة سبق أن أشرنا إليها أعلاه إشارة وجيزة. فالبينيّة هي خصوصاً "ما يمكّن من تشخيص سلسلة من المصاعب الإبستمولوجيّة في قلب العلوم، سواء أكانت علوماً إنسانيّة أم اجتماعيّة أم فيزيائيّة أم بيولوجيّة" (Renaud Pasquier et David Schreiber، 2007: 91-108). فإذا كان كلّ ميدان يتحدّد بلغته وأدواته والعاملين فيه والمؤسّسات المتكفّلة بتسييره، فإنّ العلاقات البينيّة تمثّل داخل هذا البناء "ضمانة للتّجدّد الدّائم الذي من شأنه أن يشجّع على حدوث تغييرات محتملة للأقيسة المعمول بها في مختلف الميادين وعلى التّحكّم بهذه التّغييرات" (Renaud Pasquier et David Schreiber ، 2007: 91-108).

يذكّر الباحثان بأنّ هذا السّياق يعمل بأواليّتين اثنتين. الأولى: تتمثّل في نشاطٍ تركيبيّ أو دمْجيّ يُصار فيه إلى استقبال كلّ الميادين المعنيّة لمختلف وجهات النّظر النّاشئة عن موضوعٍ معيّن، وعلى مراكمة المعطيات وتجميع الاستنتاجات. والأواليّة الثّانية :تتمثّل في العمل على تشخيص مراتبيّة داخليّة للعلوم بمقتضى قدرة كلّ منها على صياغة المشكليّات وتعميم المفاهيم الإجرائيّة. هكذا عمل فرنان بروديل Fernand Braudel مثلاً على اقتراح الدّراسات التّاريخيّة إطاراً شاملاً لجميع العلوم الإنسانيّة. وهو قد طرح ذلك في مواجهة دعوة كلود-ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss إلى اعتماد الأنتروبولوجيا البنيويّة أنموذجاً للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.

وفي ما وراء المشاكل المترتّبة على هذه الصّراعات الدّاخليّة، يرى الباحثان أنْ لا مندوحة من الإقرار بكون البينيّة قد "شكّلت للباحثين الشّبّان في تسعينيّات القرن العشرين طريقاً بديلة زاخرة بالوعود، نفحة هواءٍ نقيّ يخرجهم من ضيق الميادين القديمة المتحجّرة ومن شبكاتها العتيقة الغائصة في إعادة إنتاج آليّة و"روتين" مؤسّسي غالباً ما يتّصف بالعُقم" (Renaud Pasquier et David Schreiber، 2007: 91-108).

ما بعد بابل :

وفي مقالة فلسفيّة عن البينيّة يُشير إليها الباحثان، كتبها عالِم البيولوجيا المعروف بيار دولاتر Pierre Delattre ونشرتها موسوعة "يونيفرساليس"[1] (Delattre, Pierre، 1995: 433- 438)، نجد دفاعاً عن البينيّة شديد الحماسة وتقريظاً لحسناتها الكثيرة. يشبّه دولاتر حالة العلوم قبل انبثاق البينيّة بوضعيّة

[1] Delattre, Pierre, « Recherches Interdisciplinaires », *Encyclopaedia Universalis*, 1995, p. 433-438.

الإنسانيّة بعد بناء برج بابل في الأسطورة المعروفة، هذا البناء الذي تمخّض عن نشأة التّعدّد اللّغويّ وولادة التّرجمة بما هما عقوبة إلهيّة على خيلاء الإنسان المغالية. وبصورة مشابهة يلاحظ دولاتر أنّ "الرّطانات العلميّة، أي الأجهزة المفهوميّة والمفردات الخاصّة بمختلف الميادين، قد حوّلت العلم إلى برج بابل حقيقيّ يقوم فيه كلّ عالمٍ بطرح مشكليّاته الصّغيرة ومعالجتها داخل ميدانه الخاصّ، دون أن يُعنى البتّة بالدّلالات أو النّتائج التي يمكن أن تكون لها في ميادين أخرى" (Delattre, Pierre، 1995: 433-438).

أمّا وضعيّة البينيّة فيشبّهها بوضعيّة البشريّة بعد بابل، أي الوضعية المتمثّلة في تقارب اللّغات عبر شيوع التّرجمة وتطوّر الثّقافات الإنسانيّة. كتب دولاتر: "في المقام الأوّل، إنّ التّعقّد المتزايد للمشاريع التّقنيّة ودراسة المسائل الواسعة والصّعبة كهذه التي تخصّ البيئة، قد كشفا بصورة متعاظمة عن أهميّة الاتّصال والتّواصل بين مختلف الميادين. وفي المقام الثّاني، إنّ شعور العلماء بوجود حدود عازلة داخل بعض الميادين والحاجة إلى البحث عن أفكار مناهج متجدّدة في ميادين أخرى قد عملا في الاتّجاه ذاته، فوُلِدت اختصاصات مشتركة أو مختلطة كالفيزياء الكيمياويّة والفيزياء البيولوجيّة أو البيولوجيا الكيمياويّة. وأخيراً فإنّ الانهمام الإنسانيّ الدّائم بتوفير وحدة معيّنة للعلوم، وحدة تكون هي الضّمانة الفضلى ضدّ جميع أنواع الظّلاميّة، هذا الانهمام اكتسب من جديدٍ قدراً كبيراً من الرّاهنيّة بسببٍ من تبعثر معارفنا وتنافرها" (Delattre, Pierre، 1995: 433-438).

أكثر من مجرّد "ترجمة" داخليّة بين مختلف العلوم، يرى دولاتر في البينيّة مبحثاً أو سلوكاً علميّاً يهدف إلى "إعداد نسق شكلانيّ قابل للتّعميم بما فيه الكفاية وله من الوضوح والتّشخيص ما يكفي ليمكّن من التّعبير، في لغة موحّدة، عن المفهومات والفرضيّات والإسهامات التي يتقدّم بها عددٌ يصغر أو يكبر من الميادين" (Delattre, Pierre، 1995: 433-438). ويرى دولاتر، مقتفياً خُطى لايبنتس Leibnitz، أنّ الأنموذج الأمثل لهذه اللّغة البينيّة المثاليّة إنّما يتمثّل في لغة الرّياضيّات. لكن أيّاً تكن هذه اللّغة فإنّ حكمه في ضرورة البينيّة لا يدع للتّشكيك مجالاً. كتب: "غالباً ما ينسى بعضهم أنّ الذّهنيّات المجزّأة لا يمكنها إلاّ أن تقيم عِلماً ومجتمعاً مجزّأين" (Delattre, Pierre، 1995: 433- 438).

في اتّجاه اللاّ-ميدانيّة :

يبقى أنّ البينيّة هذه لم تعد تحظى بالإجماع الذي كان دولاتر، في مقالته هذه المنشورة لأوّل مرّة في ثمانينيّات القرن العشرين، يلوّح بحصولها عليه. فالتّفكير الفلسفيّ اللاّحق كشف عن صراعاتٍ تنشأ داخل حدود الميادين المدفوعة إلى التّلاقي والتّفاعل، أي إلى العمل بالبينيّة، وإلى رغباتٍ في الهيمنة والتّحكّم ناشئة عمّا يرافق البينيّة بصورة تكاد تكون طبيعيّة من مخاطر تنبثق من داخلها، تلكم هي مخاطر التّعميم المفرط والعشوائيّة في استخدام المفاهيم والفوضى في تطبيقها. ومما يؤخذ هنا على البينيّة هو تمخّضها عن ميدانيّة مفرطة أو تخصّصية متطرّفة hyperdisciplinarité نتجت عن التمفصلات الجديدة التي قامت بين مختلف الميادين، وحَصرت بدورها، كما نبّه إليه جان-فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard في كتابه "شرط ما بعد الحداثة" *La Condition post-moderne*، نقول :حصرت الإنتاج العلميّ والتّقنيّ في حدود النّجاعة أو المردوديّة، وأبعدته عن معيارَي "الحقيقيّ" و"العادل".

كما يؤخذ عليها أيضاً هذه العلمويّة المتطرّفة أو الحصريّة، والسّعي إلى إقامة هوّة عميقة بين المباحث العلميّة والمعارف الأدبيّة أو القريبة من الأدب، لاسيّما الفلسفة والنّقد الأدبيّ والتّاريخ. من هنا نشأت "اللاّ-ميدانيّة" L'indiscipline التي يرى الباحثان أحد أهمّ نماذجها في فكر معاصرنا جاك رانسيير Jaques Rancière . وإذا ما تذكّرنا أنّ "الميدانيّة" تعني بالأصل، وكما أشرنا إليه أعلاه، الانضباط والتقيّد بالقواعد فإنّ "اللاّميدانيّة" ترتبط بدَورها بفكرة التمرّد وعدم الانضباط واختراق الحواجز بأكثر جذريّة ممّا في ممارسة "البينيّة" و"تعدّد الميادين".

تتمثّل "اللاّ-ميدانيّة" في إجراءين تفكيكيّين وعدوانييّن عن قصد. في الأوّل يُصار إلى اتّخاذ لغة فلسفيّة تأخذ بأدوات العلم والأدب في آنٍ معاً، أي تسعى إلى فرض مسحة أو إجرائيّة أدبيّة على الخطاب العلميّ نفسه. وفي الثّاني يُسعى إلى خلخلة الخطاب العلميّ أو الإبانة عن هشاشته، وخصوصاً عن هشاشة دعواه في التميّز عن الأدب تميّزاً كلّيّاً، وذلك بالإبانة عن الأواليات والحيل البلاغيّة والأدبيّة من استعاراتٍ وكناياتٍ وسواها، التي يقوم عليها الخطاب العلميّ أو يتوسّل بها منذ أن كان.

نماذج دالّة :

يبقى أن نشير في الختام إلى أنّ الفكر الإنسانيّ لم ينتظر قيام البينيّة كإستراتيجيّةِ خطاب أو كمراسٍ علميّ ليعمل بها. فمنذ أفلاطون كان الانهمام العلميّ

يتجاور والنّشاطَ التخمينيّ والمقاربة الأدبيّة في الفكر. لكن صحيحٌ أيضاً أنّ الفكر الحديث، سواء لدى الألمان لايبنتس وكانتْ Kant وهوسرل Husserl، أو لدى الفرنسيّين الحديثي العهد وعلى رأسهم ميشيل فوكو Michel Foucault وجيل دولوزGilles Deleuze وألان باديو Alain Badiou وجاك رانسيير، قد تميّز بإضافة إجراءات الخطاب العلميّ (التّوثيق، والإحصاء، والرّياضيّات، والبيولوجيا، إلخ) إلى مجمل الجهاز الاستقرائيّ والمفهوميّ الواسع الذي به يعمل الفلاسفة.

ومن بين النّماذج البعيدة الدّلالة على المنافع التي تُسديها البينيّة إلى بعض القضايا، يذكر أنطوني مانجون (Anthony Mangeon، 2007: 59-75)، في مقالة نُشرت في العدد المشار إليه من مجلّة "لابيرانت" بعنوان "مسألة مزاج: البينيّة واللّا- ميدانيّة لدى المفكّرين الأفارقة- الأمريكان"، يذكر عمل فريقٍ من المفكّرين الأمريكان السّود منذ بدايات القرن العشرين بالبينيّة واستعانتهم بأدوات مختلف الميادين العلميّة والفكريّة لمجابهة منطق البيض الاستبعاديّ ،وتفنيد جميع الأطروحات القائلة بوجود فوارق جوهريّة في الطّبيعة الإنسانيّة بين مختلف المجموعات الإثنيّة، هذه الأطروحات التي تقوم عليها فلسفات التّمييز العنصريّ ودعوى تدنّي الإنسان الأسود.

يمكن أن نجد أيضاً مثالاً دالاً في الأبحاث المعاصرة المجتمعة تحت لواء الفكر ما بعد الاستعماريّ la pensée postcoloniale، التي تجد في أعمال إدوارد سعيد Edward Saïd، وخصوصاً في كتابه "الاستشراق" *Orientalism* وفي فكر ميشيل فوكو وجيل دولوز وجاك دريدا Jacques Derrida مصادرها الرّئيسة. في كتابات هذا التّيّار التي تصاعد انتشارها في العقود الأخيرة، نقع على استخدام متضافر وشديد الصّحو لإسهامات الفلسفة والعلوم الاجتماعيّة والنّقد الأدبيّ والتّاريخ وسواها للكشف عن الأثر العميق والبعيد المدى للواقعة الاستعماريّة، وعن الأواليّات العميقة التي بها يعمل المستعمَرون (بفتح العين) أثناء الاستعمار وبعد التّحرّر منه للصّمود أمام مساعي النّفي والمحو التي يمارسها عليهم الخطاب الاستعماريّ والآلة الإداريّة والاقتصاديّة والثّقافيّة والعسكريّة الاستعماريّة الواسعة. وتكشف هذه الأبحاث عن كون الإدارة الاستعماريّة وما يرافقها من خطابات استشراقيّة وتبريريّة تدّعي "تنوير" المستعمَر (بفتح العين) واقتياده إلى مناهل الحضارة الحديثة إنّما تعمل أيضاً بالهيمنة وتحويل الذات ،وإعادة صياغة الشخصّية المحليّة وطبعها بأنماط تفكير مفروضة

عليها. وغالباً ما يقود نضال المحليّين من أجل الخروج من هذه الهيمنة إلى ردود أفعال متشنّجة وإلى نوع من النرجسيّة القوميّة يتكفّل الفكر المحليّ الأكثر صحواً بتصحيحه ونقده للفصل بين معطيات الحضارة الكونيّة التي ينبغي الأخذ بها وبين ما هو لصيق بالخطاب الاستعماريّ وعامل في مصلحته.

يمكن أخيراً أن نجد مثالاً آخر في فكر التّرجمة الحديث أو شعرية الترجمة المعاصرة التي يستعين منظّروها ونقّادها بأدوات الألسنيّات والفلسفة والنّقد الأدبيّ والتّحليل النفسيّ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وسواها لاستكناه دلالات الفعل التّرجميّ ونتائجه على الترجمة نفسها وعلى الثقافة المستقبِلة لها. هكذا يرينا علماء الاجتماع، خصوصاً العالِمة باسكال كازانوفا Pascale Casanova، العاملة في إطار نظريّات عالم الاجتماع الرّاحل بيار بورديو Pierre Bourdieu، كون الترجمة تشكّل أغلب الأحايين ضرباً من "التبادل غير المتكافئ" يجعل الثقافة المستقبِلة للترجمات في وضعية المستهلِك والمتقبّل السلبيّ، ويجعل الثقافة المصدِّرة للنصوص بمثابة المرجع والمركز والأصل، وهي وضعيّة لا تخرج منها الثقافات المستوردة للنصوص إلاّ بعملها بدَورها على هذه النصوص وإنتاجها مرجعيّات جديدة يمكن أن تثريَ المركز نفسه وتزحزح فكرة الغرب مركزاً لفكر الحداثة وأدبها. كما أبان المحلّلون النفسيّون عن الموانع غير الواعية التي تنشأ أحياناً في ذهن المترجم وتؤثّر سلبيّاً في علاقته بالنصّ وتقيم في داخله نوعاً من الرّقابة، وكذلك عن مخاطر الموقفين المتضادّين والمتكاملين، اللّذين يتمثّل أوّلهما في التماهي مع النصّ وإلغاء كلّ مسافة نقديّة تسمح بالإحاطة به وترجمته على النحو الأمثل، وثانيهما في "التجرّؤ" على النصّ، وتحميله أبعاداً وأداءات غير كامنة فيه. كما ساعد منظّرو شعريّة الترجمة ونقّاد الترجمات وأعلام ميدان الترجمة المقارنة في تشخيص العوائق الـتأويليّة والأسلوبيّة التي تقف في وجه التّرجمة النّاجعة وما يتيح تذليلها وصولاً إلى موازنة قصوى بين التّرجمات والأصول، أي إلى النّهوض بالفعل التّرجميّ، بتعبير هنري ميشونيك Henri Meschonnic، من ترجمة لا تكون سوى ترجمة إلى ترجمة ترقى إلى مصاف الكتابة[2].

(2) يتوسّع كاتب هذه السّطور في معالجة هذه المسائل في كتابه "حصّة الغريب – شعريّة الترجمة وترجمة الشّعر عند العرب"، الموضوع أصلاً بالفرنسيّة، وصدر في ترجمة عربيّة لمحمّد آيت حنّا، مراجعة المؤلّف، منشورات الجمل، بيروت، 2011.

* المصادر والمراجع :

- **Anthony** Mangeon, « Une question de tempérament : l'in(ter)discipline des penseurs africains-américains », *Labyrinthe*, n° 27, 2007.
- Delattre, Pierre, « Recherches Interdisciplinaires », *Encyclopaedia Universalis*, 1995.
- Edgar Morin, « Sur l'interdisciplinarité », in *Rencontres transdisciplinaires*, Bulletin interactif du Centre International de Recherches et Études transdisciplinaires (CIRET), n° 2, juin, 1994.
- **Renaud** Pasquier **et David** Schreiber, « De l'interdiscipline à l'indiscipline. Et retour ? », *Labyrinthe*, n° 27, 2007.